"الرسائل" بين التعميم الاصطلاحي والارتباك التصنيفي

رسالة الشقندي نموذجا

إعداد الدكتورة
سحر محمد فتحي عبد العليم
مدرس بقسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة القاهرة

"الرسائل" بين التعميم الاصطلاحي والارتباك التصنيفي
رسالة الشقندي نموذجًا

سحر محمد فتحي عبد العليم
قسم اللغة العربية – شعبة الأدب الأندلسي – كلية الآداب – جامعة القاهرة
البريد الإلكتروني: Sahar.fathy@cu.edu.eg

المستخلص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تناول النتاج النثري الأندلسي المندرج تحت "مصطلح" الرسائل بالتحليل متخذة من "رسالة الشقندي في فضل الأندلس" نموذجًا، ومستعينة بالمنهج الشكلي الذي يتعامل مع النص بوصفه شكلًا فنيًّا محضًا فيبحث عن البنية الحاكمة لنص ما وكيفية تشكلها عبر خصائصه وتقنياته وعناصره، وذلك حتى تستخلص هذه الورقة البحثية من خلاله السمات الفنية والخصائص الأدبية التي تميز هذا النوع من الرسائل ومقاربتها لخصائص وسمات نوع أدبي آخر؛ ومن ثم تنقلها إلى تصنيف نوعي مغاير حيث "فن المقالة"، فتتمثل نتائج هذا البحث أولًا: محاولة فض التشابك والتعميم الاصطلاحي الذي يسم أغلب النتاج النثري العربي، ثانيًا: تحليل رسالة الشقندي واستخلاص السمات المُشَكِلة لها، ثالثًا: مقاربة هذه السمات "بفن المقال" والكشف عن بعض الإشارات النقدية لقدم هذا الفن عند العرب، لذا تتمثل النتيجة الأبرز لهذا البحث في إمكانية تصنيف "رسالة الشقندي" تحت فن المقال بوجه عام وإدراجها تحت "المقال النقدي" بصفة خاصة باعتبارها مقالة تتناول النتاج الأدبي والفكري والثقافي بالنقد والتحليل.

الكلمات المفتاحية:فن الرسائل – رسالة الشقندي – فضل الأندلس – فن المقال – النثر العربي – الأنواع الأدبية .

Terminological Generalization and Indefinite Classification of the Genre "Messeages/ Ar-Raseal": Ash-Shaqandi's Message as a Model

Sahar Muhammad Fathi Abd Al-Halim
Arts Faculty – Arabic Language Department Cairo-University
E-mail: Sahar.fathy@cu.edu.eg

Abstract

This research paper seeks to study the Andalusian prose product that is classified under the term " Messages/ Ar-Raseal" and analyze it, taking Ash-Shaqndi's Message on the merits of Andalusia as a model, and using the formal method to show through it the artistic and literary features that characterize this type of messages. The paper moves Ash-Shaqndi's message to a different category, which is "articles". The result of the research is an attempt to unravel the entanglement and the terminological generalization that characterize most of the Arabic prose production. Moreover, it tries to analyze Ash-Shaqandi's Message and extract its distinctive features. Finally paralleling these features with the features of "Articles" genre hence concluding that Ash-Shaqandi's Message could be classified under "Articles" and specifically "Critical Articles" which is the most prominent finding of the research. It is considered an article that tackles critically the literary, intellectual and cultural production.

keywords: Messages Genre, Ash-Shaqandi Message, Andalusia Merits , Articles Genre , Arabic Prose , Literary Genres.

"الرسائل" بين التعميم الاصطلاحي والارتباك التصنيفي
رسالة الشقندي نموذجًا

إن مصطلح "الرسالة" وما يندرج تحته من نتاج أندلسي يضع الباحث في منطقة مرتبكة وقلقة على المستوى التصنيفي والتناول النقدي؛ كما يضعه في تحد يتطلب المزيد من الدرس والتحليل والتناول للنتاج النثري الأندلسي بغية فض هذا التشابك والتعميم الاصطلاحي الذي يسم جل النتاج النثري في ذلك الوقت تحت مصطلح "رسالة"؛ حيث كُتب تحت مصطلح "الرسائل" كتابات مثل رسالة طوق الحمامة، ورسالة التوابع والزوابع، ورسالة حي بن يقظان ما زالت مثار حيرة الباحثين في تصنيفها إلى الآن ما بين القصة والرواية والقصة القصيرة [١]؛ لما تحويه من خصائص وسمات أسلوبية مبتكرة وجديدة على التقاليد الأدبية المستقرة للأنواع النثرية في هذه الفترة.

إن إشكالية مصطلح "الرسالة" تنبع من اتساعه اتساعًا يندرج تحته أغلب الكتابات النثرية في ذلك الوقت؛ مما أفقده السمة الاصطلاحية المُحَدِّدَة والمُبَيِّنة للنوع وخصائصه، وهو أمر يُمَكِّن الباحث من إعادة النظر في كل عمل مقدم تحت اسم "رسالة"، فبينما لم يعرف الكاتب في هذه الفترة الزمنية من التصنيفات النوعية سوى عدد محدود لا يتسع لإبداعه وابتكاره، فالباحث الآن يمتلك من المناهج والأدوات التحليلية ما يُمَكِّنَه من فض هذا التشابك والتداخل النوعي من ناحية، وإبراز السمات والخصائص الفنية المميزة والمستحدثة في

(١) للمزيد حول هذه الأعمال وتصنيفها يمكن الرجوع إلى: ألفت الروبي، تشكل النوع القصصي– قراءة في رسالة التوابع والزوابع، فصول، مج ١٣، ع ٣، الهيئة العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٣ م، ومحمود أمين العالم، مدخل إلى قراءة حي بن يقظان لابن طفيل، أدب ونقد، ع ١٠٦، مصر ١٩٩٤ م، وسحر محمد فتحي عبد العليم، أعمال أدبية أندلسية مهدت الطريق إلى القص العربي الحديث، مجلة Arabic and world literature: comparative and Multidisciplinary perspectives، ع ١،٢٠٢٠ م.

سياقها الزماني من ناحية أخرى، هذه الخصائص التي لم يُلتفت إليها نظرًا لإدراجها تحت مصطلح فني تراثي له تقاليد فنية مستقرة ومعروفة.

تمثلت جهود المنهج الشكلي بالأساس في وضع مجموعة من الأسس والقواعد تنأى بالنقد الأدبي عن الانطباعية والتذوق الفردي عبر مؤلفات أعضاء المدرسة الشكلية الروسية من أمثال رومان ياكبسون (١٨٩٦-١٩٨٢) ودراسته بعنوان "الشعر الروسي الحديث" (١٩٢١)، ودراسة يوري تينيانوف بعنوان "مشكلة الشعر" (١٩٢٤)، ودراسة للناقد شكلوفسكي (١٨٩٣-١٩٨٤) بعنوان "نظرية النثر" (١٩٢٥)[١]، تركز فهم الشكلانيين الروس للأدب حول فنيته وجماليته، أي حول كونه فناً خالصًا أداته اللغة مجردًا عن أي سياقات خارجية؛ فالنص ليس وثيقة تاريخية كما أنه ليس تحليلا نفسيا ولا واقعا اجتماعيا أو ساحة سياسية، ومن ثم فهم يبحثون في مجموعة من الخصائص والتقنيات التي من شأنها أن تحقق للنص أدبيته ويفصلون العمل الأدبي عن سياقاته الخارجية وعن شخصية مؤلفه[٢].

ومن أهم مفاهيم هذا المنهج مفهوم الشكل (form) حيث إنه مفهوم يتعامل مع النص بوصفه شكلا فنيا محضا، ويربط بين تطور الأشكال الفنية وتطور الأدب،ولا يعني الشكل هنا مجرد العناصر اللغوية بما تشتمل عليه من تراكيب ومفردات وصور، وإنما النظام أو البنية أو النسق الذي يتخذه النص الأدبي، ومن ثم تتمثل إجراءات هذا المنهج في البحث عن البنية الحاكمة لنص ما

(١) ممدوح أبو الوي، المدرسة الشكلية الروسية وأثرها في الاتجاهات النقدية الحديثة، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، مج٤٦-ع٥٦٠، ٢٠١٧م، ص٣-٤. ونوفل نيوف، الشكلانية الروسية، مجلة الآداب العالمية اتحاد الكتاب العرب، س٣٥-ع١٤٣، ٢٠١٠م.

(2) Eagleton, Terry .*Literary theory: An introduction* .John Wiley & Sons, 2011, Structuralism and semiotics.

وكيفية تشكلها عبر خصائصه وتقنياته وعناصره[١]، وبعبارة عبد الله الغذامي "استنباط الشفرات المعيارية التي ينطلق منها النص الأدبي"[٢].

أولًا: الجانب التنظيري

لعل ما يحمله مصطلح "رسالة" من تقاليد ومعنى لغوي ووظيفي مستقى في تأسيسه وتأصيله من هذين النوعين "الرسائل الديوانية" و "الرسائل الإخوانية" فهما أول أنواع الرسائل في الظهور نظرًا للحاجة الوظيفية التي يحققها كل نوع منهما، فعلى الصعيد السياسي ثمة حاجة إلى كتابة مراسلات تختص بشئون الدولة وسياستها وخططها وانتظار رسائل مماثلة ردًا عليها، وعلى الصعيد الاجتماعي ثمة حاجة إلى التواصل بين الأصدقاء والمشاركة في مختلف المناسبات الاجتماعية فظهرت "الرسائل الإخوانية".

ولعل هذا التحديد لفن "الرسائل" ــ بأنها تضم هذين النوعين من الرسائل فقط؛ الرسالة الديوانية من ناحية، والرسالة الإخوانية التي تقتصر على مراسلة الأصدقاء في مختلف المناسبات من ناحية أخرى ــ هو ما ارتضاه عمر الدسوقي في كتابه نشأة النثر الحديث وتطوره معيارًا لماهية الرسالة إلى الدرجة التي اعتبر معها كل ما دون ذلك ودخل تحت مصطلح "الرسالة" من باب الخلط [٣].

هذان النوعان من الرسائل ينطويان على المعنى التداولي لكلمة رسالة من حيث كونها تكتب من مُرسِل إلى مُستَقبِل، وتحمل معلومة تُخبر بها المُستَقبِل

(١) بوعلي كحال، من الشكلانية إلى البنيوية: إقصاء التاريخ والواقع المادي، مجلة مقامات للدراسات اللسانية والنقدية والأدبية، المركز الجامعي آفلو – معهد الآداب واللغات، ع٣، ٢٠١٨م.
(٢) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٢٣.
(٣) للمزيد انظر عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث وتطوره، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧ م، فصلي فن الرسائل، والمقال.

في سياق تواصلي يخلو من المباشرة، ومن ثم فالمُرسِل هنا ينتظر رسالة رد من المُستقبِل نظرًا لطبيعة السياق التواصلي بين الطرفين، كما يتبادل الطرفان الحديث عن صفات الآخر ومكانته وعن المشاعر التي تختلجه أثناء الكتابة إلى مُستقبِل رسالته، وتبنى الرسالة على هذا النحو الوصفي الجمالي، وهي سمات متحققة في هذين النوعين فقط من الرسائل بينما تنتفي في غيرهما من الكتابات المتباينة في أسلوبها وموضوعاتها التي تندرج تحت المصطلح نفسه.

إلا أن مصطلح الرسائل الإخوانية ظل يتسع لتصبح الإخوانيات تضم تحت مظلتها أغلب الرسائل التي تتنوع في موضوعاتها وتتباين في معالجة هذه الموضوعات ما بين المسامرات والمناظرات والأوصاف والهجاء والفخر... إلخ، فضلًا عما تمت الإشارة إليه سابقًا من أعمال ابن حزم وابن شهيد وابن طفيل، مما ولد مجموعة من الخصائص الفنية والسمات الأسلوبية التي تُشكل المأزق النقدي التصنيفي، ومن ثم الارتباك الاصطلاحي حيث تتعدد المصطلحات التي تطلق على العمل نفسه.

تمثل هذا الارتباك الاصطلاحي في وجود من يلجأ من الباحثين إلى مصطلح الرسائل الأدبية، وآخرون يذهبون إلى مصطلح الرسائل الفنية، وهناك من يذهب إلى تسمية الرسائل النقدية، بينما لجأ بعض الباحثين إلى المحتوى وطبيعته متخذًا منه مخرجًا وسبيلًا لتسمية هذه الكتابات فظهرت عدة تسميات كالمفاخرات والمفاضلات، هذا بالإضافة إلى من اتخذ التقنيات الفنية وسيلة للتسمية فظهرت تسميات المناظرات والمحاورات.

إلى هذه المنطقة التصنيفية المرتبكة تنتمي "رسالة الشقندي في فضل الأندلس" فكتابة الشقندي في فضل الأندلس وليدة مجتمعها وسياقها الزماني، فكما ظهرت مجموعة من الخصائص الأدبية والسمات الأسلوبية تميزت بها

الأندلس شعرًا ونثرًا ظهرت أيضًا موضوعات جديدة وليدة مجتمعها كاشفة عن طبيعته، على رأس هذه الموضوعات موضوع **"المفاضلات"** حيث تنوعت وتعددت العناصر التي فاضل بينها الأندلسيون؛ ففاضلوا بين الأزهار تارة، وبين السيف والقلم تارة أخرى، وبين المدن... إلخ، واتخذت المفاضلة بين المدن نصيبًا كبيرًا من كتاباتهم وإلى هذا الموضوع ينتمي نص الشقندي.

ولكتابة هذا النص قصة يرويها ابن سعيد عن والده ويمكننا التوقف من خلالها عند عدة دلالات "قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: أَخْبَرَنِي وَالِدِي قَالَ: كُنْتَ يَوْمًا فِي مَجْلِسِ صَاحِبِ سَبْتَة أَبِي يَحْيَى اِبْنُ أَبِي زَكَرِيَّا صِهْرِ نَاصِرِ بنِيَ عَبْدِ الْمُؤْمِن ، فَجَرَى بَيْنَ أَبِي الْوَلِيد الشَّقْنَدِي وَبَيْنَ أَبِي يَحْيَى اِبْن الْمَعْلَمِ الطَّنْجِي نِزَاعٌ فِي التَّفْضِيلِ بَيْنَ الْبَرَّيْنِ، فَقَالَ الشَّقْنَدِي لَوْلَا الْأَنْدَلُسُ لَمْ يُذْكَرْ بَرٌّ الْعُدْوَّة، وَلَا سَارَتْ عَنْهُ فَضِيلَةٌ، وَلَوْلَا التَّوْقِيرُ لِلْمَجْلِسِ لَقُلْتُ مَا تَعْلَمَ، فَقَالَ الْأَمِيرُ أَبُو يَحْيَى: أَتُرِيدُ أَنْ تَقُولَ كَونَ أَهْل بَرِّنَا عَرَبًا وَأَهْل بَرِّكُمْ بَرْبَر؟ فَقَالَ: حَاشَ لِلَّهِ! فَقَالَ الْأَمِيرُ: وَاللَّهُ مَا أَرَدْتُ غَيْرَ هَذَا، فَظَهَرَ فِي وَجْهِهِ أَنَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ الْمَعْلَمِ: أَتَقَوَّلُ هَذَا وَمَا الْمُلْكُ وَالْفَضْلُ إِلَّا مِنْ بَرِّ الْعُدوَّة فَقَالَ الْأَمِيرُ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ يَعْمَلَ كُلُ وَاحِدٍ مِنْكُمَا رِسَالَةً فِي تَفْضِيلِ بَرِّهِ، فَالْكَلَامُ هُنَا يَطُولُ وَيَمُرُّ ضَيَاعًا، وَأَرْجُو إِذَا أَخْلَيْتُمَا لَهُ فِكْرَكُمَا يَصْدُر عَنْكُمَا مَا يَحْسُنُ تَخْلِيدُهُ، فَفَعْلا ذَلِكَ"(١).

هذه القصة هي السياق الخارجي الذي يوضح دوافع التأليف التي يمكن أن نستخلصها على النحو التالي:

أولًا: الكتابة في هذا الموضوع جاءت نتيجة نزاع حدث بين طرفين في التفضيل بين البرين كل طرف ينحاز لبره وهو ما يصرح به الشقندي أيضًا في كلامه عما دفعه للتأليف في هذا الموضوع حيث يقول "فَإِنَّهُ حَرَّكَ مِنِّي سَاكِنًا،

(١) المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، الجزء الثالث، ص ١٨٦.

وَمَلَأَ مِنِّي فَارِغًا، فَخَرَجَتُ عَنْ سَجِيَّتِي فِي اَلْإِغْضَاءِ، مُكْرَهًا إِلَى اَلْحِمْيَةِ وَالْإِبَاءِ، مُنَازِعٌ فِي فَضْلِ اَلْأَنْدَلُسِ أَرَادَ أَنْ يَخْرُقَ اَلْإِجْمَاع، وَيَأْتِي بِمَا لَا تَقْبَلُهُ اَلنَّوَاظِرُ وَالْأَسْمَاعُ، إِذْ مَنْ رَأَى وَمَنْ سَمِعَ لَا يَجُوزُ عِنْدَهُ ذَلِكَ، وَلَا يُضِلُّهُ مِنْ تَاهَ فِي تِلْكَ اَلْمَسَالِكِ، رَامَ أَنْ يُفَضِّلَ بَرَّ اَلْعُدْوَّة عَلَى بَرِّ اَلْأَنْدَلُسِ فِرَامَ أَنْ يُفَضِّلَ عَلَى اَلْيَمِينِ اَلْيَسَارَ، وَيَقُولَ: اَللَّيْلُ أَضْوَأ مِنْ اَلنَّهَارِ" (١)، ثانيًا: طلب الأمير من الطرفين التأليف في تفضيل كل منهما لبره، **ثالثًا:** هدف التخليد الذي قرنه الأمير بإعمال الفكر حتى يصدر ما يحسن تخليده.

- **كيفية بناء النص:**

إن هذه النقاط مجتمعة نستطيع من خلالها أن نستخلص الآليات التي ستبنى عليها الكتابة في هذا الموضوع فضلًا عن المنهجية التي يقتضي الموضوع أن يتخذها الشقندي؛ حيث يتطلب الأمر كتابة منطقية حجاجية برهانية تبنى على العقل وإعمال الفكر والإقناع لا على الخيال والصور الجمالية والأدبية، إن النزاع والتفضيل هنا يتطلب سوق الحجج والبرهنة والدفاع عن الرأي سعيًا لتفنيد آراء وأقوال الطرف المقابل وبيان تهاوي مزاعمه، إن منهجية كهذه أقرب إلى الكتابة الموضوعية الفكرية النقدية منها إلى الكتابة الذاتية الخيالية الجمالية.

- **مركزية الفكرة في النص:**

ومن ناحية البناء فإن آلية بناء الكتابة في هذا الموضوع تنبع من هدفه، ومما يتغياه، فثمة فكرة يسعى الكاتب إلى إثباتها والذود عنها، ومن ثم تبنى على مقدمات تسوق إلى الهدف/ النتيجة التي من أجلها كان التأليف "فضل الأندلس/ الدفاع عن الأندلس"، تنقلنا آلية البناء هذه إلى **"فن المقال"**؛ فالمقال ينبني على فكرة ورأي يريد الكاتب إقناع المتلقي به فيتسلح في سبيل تحقيق

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٦.

ذلك بمعارفه وقراءاته لتصبح بمثابة الحجج والأدلة على ما يتغياه "من هنا اعتمد المقال على الحكاية والمثل والإشارة إلى جانب المادة التحصيلية وكل ذلك يتشكل– حين يأخذ صورته النهائية– بحالة الكاتب النفسية ومعنى هذا أن الكاتب يحدد مشروع مقاله من قبل أن يكتبه بحيث تتوجه كل مادته على اختلاف أنواعها إلى جلاء فكرة واحدة في جميع جوانبها، وفي الوقت الذي يحرص فيه الكاتب على تماسك مقاله وقوته، نجده حريصا على إمتاع قارئه"(١).

لا يتوقف الأمر في نص الشقندي عند آلية بناء النص ولا هدفه وإنما ما تحظى به كتابة الشقندي كذلك في دفاعه عن الأندلس من خصائص وأساليب تتوقف عندها هذه الورقة البحثية بالتحليل تجعلها تندرج تحت فن المقال لا سيما **"المقال النقدي"**، فقد "عرف العرب كتابة المقالات منذ ظهور الكتابة الفنية عندهم في العصر الأموي، ثم ارتقت تلك المقالات في العصر العباسي في المشرق والمغرب وإن كانوا لم يطلقوا عليها اسم" المقال "في تلك العصور المتقدمة، وإنما كانت تعرف عندهم باسم الرسالة والمراد باصطلاح الرسالة هذا عندهم ليس الرسائل الديوانية ولا الرسائل الإخوانية، ولكن الرسالة التي تتناول موضوعًا بالبحث كرسائل إخوان الصفا مثلًا، وما كتاب البيان والتبيين للجاحظ إلا مجموعة مقالات تقوم المقالة الواحدة منها على فكرة بعينها" (٢).

إن كثيرًا من الرسائل في أدبنا العربي يمكن إعادة النظر إليها من هذه الزاوية النوعية التي تتخذ من السمات والخصائص والأهداف عنصرًا مركزيًا

(١) عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة التاسعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص ١٦٣.

(٢) عبد الجواد أحمد محمد أحمد، فن المقال بين القديم والحديث، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ١٣،١٩٩٣ م، ص ٥٨٨-٥٨٩. نقلا عن عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة التاسعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص ١٦٢.

في تصنيف الأنواع الأدبية وهو معيار يرجع في تأصيله إلى أرسطو فثمة أسس وضعها (أرسطو) في كتابه الشعر تتمايز من خلالها الأنواع الأدبية وتفصل بين كل فن حيث اعتمد ثلاثية تتشكل من خصائص النوع من ناحية مضمونه ومن ناحية شكله ثم من ناحية هدفه(١) لتمثل هذه الأضلاع الثلاثة معيارًا نقديًا يمكن البناء عليه واتخاذه وسيلة لتصنيف الفنون المختلفة وطرائق تشكلها بوجه عام وإن لم يتم تناولها في كتاب الشعر لأرسطو بالطبع.

ثمة التفات نقدي ظهر في العصر الحديث إلى تشابك وتشابه بين "فن الرسائل" في تراثنا العربي و "فن المقال" باعتباره نوعًا أدبيًا من الأنواع الأدبية الحديثة التي نقلناها عن الغرب مثله مثل الفنون الأدبية الحديثة من قصة ورواية ومسرحية، حيث ذهب بعض الباحثين إلى العودة وإعادة النظر في الكتابات النثرية التراثية التي جاءت تحت مصطلح "الرسالة"، ليجدها تحمل بداخلها الخصائص الأدبية لفن لمقالة إلى الحد الذي يؤهلها أن تحمل "بذور المقالة في أدبنا العربي" (٢)، ويتفق شوقي ضيف مع هذا الرأي حيث يرى المقالة "وليدة من بذرة عربية في أرض عربية، ومن فكر عربي أخذ سمته في التطور بحسب ظروف عصره وبيئته ومجتمعه وضروراته"(٣).

ويرى يوسف نجم أن "العرب في نطاق فهمهم للتعبير الأدبي، قدموا بعض الرسائل والفصول الأدبية الممتعة، التي يصح أن ندرجها تحت الأدب المقالي، مع شيء من التجاوز والاعتدال في التحديد، شأنهم في ذلك شأن أكثر الأمم التي سبقتهم أو عاصرتهم" (٤)، وأن "الإخوانيات" على سبيل المثال ذلك

(١) محمد مندور، الأدب وفنونه، الطبعة الخامسة، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٦ م، ص ٢٠.
(٢) محمد يوسف نجم، فن المقالة، الجامعة الأميركية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ١٦-١٧.
(٣) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، الطبعة العاشرة، ١٩٦٠ م، ص ١٤٣.
(٤) محمد يوسف نجم، فن المقالة، الجامعة الأميركية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٢٢.

المصطلح الذي اتسع ليشمل موضوعات متعددة بمختلف المعالجات الفنية يعد ممثلًا تمثيلًا دقيقًا لفن المقال، فالإخوانيات "وما تدور عليه من مسامرات ومناظرات وأوصاف وعتاب، وإلى الرسائل التي كانت تتناول الموضوعات التي تفرد بها الشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف، لوجدنا أنها تعكس خصائص المقالة، لا كما عرفت في طورها الأول الذي استمر حتى القرن السادس عشر، بل كما عرفت عند رائديها في فرنسا وانكلترا" (١).

ومع هذا الرأي يتفق عمر الدسوقي بقوله "تعد الرسائل أقدم فنون الأدب في النثر العربي، منذ استحال إلى صناعة فنية على يد عبد الحميد الكاتب، وكان للرسائل شأن عظيم في أخريات العصر العباسي، ونبغ فيها جمهرة من أكابر الأدباء..... ولقد ورثنا في العصر الحديث بعد عصر الإحياء عددًا ضخما من هذه الرسائل التي دبجتها أقلام الأدباء على مر العصور. ووجدنا أن بعض هذه الرسائل تطول حتى تبلغ حد المقال" (٢).

ويذهب مندور إلى تفكيك هذا الارتباط الذي نشأ بين فن المقال والصحافة باعتباره ظهر بظهورها بالعودة إلى قرون سابقة تعود إلى عصر اليونان ليؤكد أن "فن المقالة" عرف منذ ذلك الوقت باعتباره قالبًا فنيًا يختاره الأدباء لتقديم رؤاهم وأفكارهم، ويرجح أن أقدم صور "فن المقال" هي تلك المقالات التي قدمت الشخصيات النمطية ممثلة في كتابات الكاتب الأخلاقي تيوفراست وعنوانها "صور نمطية" التي يقوم فيها برصد السمات المتباينة والجامعة لهذه الشخصيات وتحليل سلوكهم البشري، وهي نوعية المقالات التي يجد لها مثيلًا

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٦-١٧.
(٢) عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث وتطوره، ص٩٩

في أدبنا العربي لكن تحت مصطلح "الرسائل" في كتابات الجاحظ في رسالته "التربيع والتدوير" على سبيل المثال وغيرها من كتاباته(١).

إذن ثمة التفات نقدي لهذا التداخل الاصطلاحي بين مصطلح "الرسالة" و"المقال" لكنه جاء بمثابة إشارات عابرة مجملة لم يعقبها الخطوة التطبيقية التي تستهدف العودة إلى تراثنا من الرسائل على مختلف أنواعها وموضوعاتها لتلمس ما تحمله من خصائص تمكننا من إعادة تصنيفية لنتاجنا الأدبي التراثي على أسس نقدية، وربما يرجع ذلك إلى طبيعة هذه الحقبة النقدية التي علت فيها الأصوات بالقطيعة المعرفية مع التراث وضرورة الالتفات إلى المنجز الغربي والاستفادة منه وشيوع أوصاف بالشيفونية والرجعية تلاحق المحاولات التي تبحث عن الإسهامات الممتدة في الزمن والمؤثرة في المتصل الحضاري الذي يثبت لكل حضارة منجزها وكيفيات البناء عليه والإفادة منه (٢)، هذا إلى جانب ندرة الالتفات إلى النتاج التراثي الأندلسي فقد أتت غالبية الإشارات إلى الرسائل المشرقية بصفة عامة وإلى رسائل الجاحظ بصفة خاصة.

ثانيا: الجانب التطبيقي

- **مقدمة النص: الصياغة التقريرية وسلية تأكيد ودحض اعتراض**

يمكننا تبين خصائص نص "الشقندي" من مقدمته لموضوعه حيث يبدؤه بمقدمة يسوق فيها رأيه الذي يصوغه صياغة تقر واقعًا لا مجال للاعتراض عليه أو المجادلة فيه؛ إذا يلجأ إلى الذات العليا وحكمة تصريفها للأمور ومنحها النعم والهبات، ومن ثم فلا مجال للاعتراض وإنما المجال مفتوح فقط للإثبات والبرهنة وسوق الأدلة المختلفة التي من شأنها إيضاح الأمر وإبرازه حيث

(١) محمد مندور، الأدب وفنونه، ص ١٨٠–١٨٥.

(٢) للمزيد حول هذه الفكرة يمكن العودة إلى: سحر محمد فتحي وغادة كمال سويلم، في مواجهة خطاب التبعية ومجاوزة خطاب التمثل فجوات الرحلة النقدية من حازم القرطاجني إلى رشاد رشدي، مجلة ميريت الثقافية، القاهرة، العدد ٣٧، يناير، ٢٠٢٢ م.

يقول "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ لِمَنْ يَفْخَر بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ مِلْءَ فِيهِ، وَيُطْنِبَ مَا شَاءَ فَلَا يَجِدُ مِنْ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ وَلَا مِنْ يُثْنِيهُ، إِذْ لَا يُقَالُ لِلنَّهَارِ: يَا مُظْلِمٌ، وَلَا لِوَجْهِ النَّعِيمِ: يَا قَبِيحٌ.

وَقَدْ وَجَدَتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سِعَةٍ . . . فَإِنْ وَجَدَتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلِ

أَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَنِي مِمَّنْ أَنْشَأَتْهُ، وَحَبَانِي بِأَنْ كُنْتُ مِمَّنْ أَظْهَرَتْهُ، فَامْتَدَّ فِي الْفَخْرِ بَاعِي، وَأَعَانَنِي عَلَى الْفَضَائِلِ كَرَمُ طِبَاعِي" (١).

ينتقل الشقندي بعد هذه المقدمة بالغة التقريرية إلى إثباته فضل الأندلس عبر مسلكين:

المسلك الأول: دحض أقوال الطرف الآخر وبيان تهافتها، وفي ذلك يتخذ **البنية التساؤلية** وسيلة لإحداث ذلك؛ فالتساؤلات التي يوردها "الشقندي" على مدار موضوعه تساؤلات مجازية؛ فالاستفهام هنا لا يأتي على نحو حقيقي يتطلب الإجابة عنه، وإنما يأتي في صور بلاغية متنوعة ما بين التعجب والاستنكار والسخرية والتهكم، وهذه الصور على تنوعها تحقق الوظيفة نفسها تفنيد أقوال المنازع وبيان تهافتها.

وفي هذا المسلك يلجأ الشقندي أيضًا إلى التكثيف والتوالي والسرعة في طرح الأسئلة، فالتساؤلات الاستنكارية التعجبية تأتي مكثفة متتالية متسارعة- تتبع سرعتها من قصرها وتكثيفها المعاني- لا تترك مجالًا للإجابة أو التفكير هي بمثابة طلقات كلامية إفحامية توجه نحو المخاطب المنوط بالحديث على هذا النحو "فَيَا عَجَبًا كَيْفَ قَابَلَ الْعَوَالِي بِالزِّجَاجِ*، وَصَادِمَ الصَّفَاةَ بِالزُّجَاجِ؟*،

(١) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م، الجزء الثالث، ص ١٨٦.

* العوالي أعلى الرماح ويقصد بها السنان الجانب المدبب الذي يطعن به، والزّجَاج جمع زُج والمقصود به الحديدة التي في أسفل الرمح (المعجم الوسيط)، فيقصد الشقندي كيف يقارن بين سنان الرمح ونهايته.

فَيَا مِنْ نَفَخَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ*، وَرَامَ صَيْدَ اَلْبُزَاةِ بَالْرَّخَمِ*، كَيْفَ تَتَكَثَّرُ بِمَا جَعَلَهُ اَللَّهُ قَلِيلاً؟، وَتَتَعَزَّزُ بِمَا حَكَمَ اَللَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِيلاً؟! وَكَيْفَ تُبَدِّي أَمَامَ اَلْفَتَاةِ اَلْعَجُوزَ. سَلِ اَلْعُيُونَ إِلَى وَجْهِ مِنْ تَمِيلُ وَاسْتَخْبِرِ اَلْأَسْمَاعَ إِلَى حَدِيثِ مَنْ تُصْغِي؟"(١)، وفي موضع آخر " اقَنِ *حَيَاءكَ أَيُّهَا اَلْمُغَرِّدُ بِالنَّحِيبِ، اَلْمُتَزَيِّنُ بِالْخَلَقِ، اَلْمُتَحَبِّبُ إِلَى اَلْغَوَانِي بِالْمَشِيبِ اَلْخَضِيبِ، أَيْنَ عَزَبَ عَقْلُكَ وَكَيْفَ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْه فَهْمُكَ وَلُبُّك، أَبْلَغَتِ اَلْعَصَبِيَّةُ مِنْ قَلْبِكَ أَنْ تَطْمِسَ عَلَى نُورَيْ بَصَرِكَ وَلُبِّك".

لم تتوقف هذه التقنية التساؤلية عند الاستنكار والتعجب فقط، وإنما اعتمدها الشقندي تقنية مركزية على مدار موضوعه؛ حيث ضمنها العديد من الصور والأهداف فمن التعجب والاستنكار إلى التهكم والسخرية، فبعد تساؤلات متتالية متسارعة تبدأ بـــ "هل لكم ـــــ وهل عندكم" غرضها النفي والإثبات في آن؛ حيث إنها بينما تنفي وجود مثل هذه المآثر لدى الخصم فإنها تثبته للسائل، عقب هذا الحشد التساؤلي المباهي تأتي تساؤلات التهكم والسخرية من مثل قوله "وَهَبَ أَنَّهُ كَانَ يَكُونُ لَكُمْ مِثْلُهِ فَمَا تَصْنَعُ اَلْكَيِّسَةُ* فِي اَلْبَيْتِ اَلْفَارِغِ؟"(٢).

* الصفاة هي الحجر العريض الأملس، والزجاج الجسم الشفاف الهش الذي يكسر (المعجم الوسيط)، يعني أن المقارنة محسومة بالضرورة لصالح الصفاة التي من شأنها أن تكسر الزجاج الهش، والكلام كله جار على سبيل الاستعارة التمثيلية.

* الضَّرَم: الاشتعال والمقصود الجمر ينفخ فيه فيتقد، وهي استعارة تمثيلية أخرى مثل قولهم ينقش على الماء، وينفخ في غير فحم.

* البزاة: جمع باز وهو طائر جارح كالصقر والشاهين يستخدم للصيد، أما الرَّخَم: جمع رخمة وهي من ضعاف الطير ولا يستعان بها في الصيد، المقصود أنه يوجه رسالة لخصمه بأنه يريد أن يقلب الحقائق أو يسير الأمور على غير طبائعها.

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

* اقن: فعل أمر من القنية بمعنى احفظ حياءك.

* الكَيِّسة: وهي المهارة الذكية الفطنة صاحبة الكياسة.

(٢) المقري، نفح الطيب، الجزء الثالث، ص ١٨٧.

المسلك الثاني: الدفاع وإثبات الفضل، وفي هذا المسلك يحتشد الشقندي بالأمثلة والشواهد والأدلة على مقدمته وما يطرحه من آراء حول الأندلس، ويمثل هذا الجزء متن النص حيث يذخر بذكر المحاسن والمآثر وفيه ينوع الشقندي حديثه فيباهي بشتى المجالات والشخصيات، فضمت عناصر المفاضلة والمباهاة والفخر عنده الملوك، والشعراء، والكتاب، وعلماء الفقه، وعلماء اللغة والنحو، والفلاسفة، والمهندسين، والأطباء، والمؤرخين، وعلماء الفلك، والفرسان، والشعراء، والكتاب.

- **وظائف البنى التساؤلية في النص:**

وفي كل مجال من المجالات توقف الشقندي عند أمثلة نابهة بديعة، بحيث يكفيه في أي مجال الإشارة إلى نموذج واحد يبلغ القمة ويترك للمتلقي مساحة القياس على غيره من النماذج، ويتخذ من البنية التساؤلية أسلوبًا له في هذا المسلك أيضا لضرب الأمثال وسوق النماذج التي لا مجال معها للرد أو الكلام فحديثه عن العلماء– على سبيل المثال– يأتي على هذا النحو "وَإِنَّكَ إِنْ تَعَرَّضتَ لِلْمُفَاضَلَةِ بِالْعُلَمَاءِ فَأَخْبَرَنِي: هَلْ لَكُمْ فِي اَلْفِقْهِ مِثْلُ عَبْدِ اَلْمَلِكِ بْن حَبِيب اَلَّذِي يُعْمَلُ بِأَقْوَالِهِ إِلَى اَلْآنَ؟ وَمِثْلُ أَبِي اَلْوَلِيدِ اَلْبَاجِي، وَمِثْلُ أَبِي بَكْرٍ اِبْن اَلْعَرَبِي، وَمِثْلُ أَبِي اَلْوَلِيد ابْن رُشْد اَلْأَكْبَرِ، وَمِثْلُ أَبِي اَلْوَلِيد ابْن رُشْد اَلْأَصْغَرِ، وَهُوَ ابْنُ ابْنِ اَلْأَكْبَرِ، نُجُومُ اَلْإِسْلَامِ، وَمَصَابِيحُ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ، وَهَلْ لَكُمْ فِي اَلْحِفْظِ مِثْلُ أَبِي مُحَمَّد ابْن حَزْم اَلَّذِي زَهِدَ فِي اَلْوِزَارَةِ وَالْمَالِ، وَمَالَ إِلَى رُتْبَةِ اَلْعَلَمِ، وَرَآهَا فَوْقَ كُلِّ رُتْبَةٍ، ... وَمِثْلُ أَبِي عُمَر ابْن عَبْدِ اَلْبَرِ صَاحِبَ "اَلاسْتِذْكَارِ" و"اَلتَّمْهِيدِ" وَمِثْلُ أَبِي بَكْر ابْنُ اَلْجدِّ حَافِظِ اَلْأَنْدَلُسِ فِي هَذِهِ اَلدَّوْلَةِ، وَهَلْ لَكُمْ فِي حُفَاظِ اَللُّغَةِ كَابْن سِيدَه صَاحِبِ كِتَابِ "اَلْمُحْكَمِ" وَكِتَاب "السَّمَاءِ وَالْعَالَمِ" اَلَّذِي إِنْ أَعْمَى اَللَّه بَصَرَهُ فَمَا أَعْمَى بَصِيرَتَهُ، وَهَلْ لَكُمْ فِي اَلنَّحْوِ مِثْلُ

أَبِي مُحَمَّد ابْنُ اَلسَّيِّد وَتَصَانِيفَهُ وَمِثْلُ ابْن اَلطَّرَاوَة، وَمِثْلُ أَبِي عَلِي اَلشَّلَوْبِين اَلَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا اَلْآنَ، وَقَدْ سَارَ فِي اَلْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِق ذِكْرُهُ، وَهَلْ لَكُمْ فِي عُلُومِ اَللَّحُونِ وَالْفَلْسَفَةِ كَابْنِ بَاجَه؟ وَهَلْ لَكُمْ فِي عِلْمِ اَلنُّجُومِ وَالْفَلْسَفَةِ وَالْهَنْدَسَةِ مَلِك كَالْمُقْتَدِرِ بْن هُودْ صَاحِبِ سَرَقَسْطَة؟ فَإِنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ آيةً، وَهَلْ لَكُمْ فِي اَلطِّبِّ مِثْلُ ابْن طُفَيْل صَاحِبِ رِسَالَةِ "حَيِّ بْنِ يَقْظَان" اَلْمُقَدَّمِ فِي عِلْمِ اَلْفَلْسَفَةِ، وَمِثْلُ بَنِيَ زُهْر أَبِي اَلْعَلَاء ثُمَّ ابْنِهِ عَبْدَ اَلْمَلِكْ ثُمَّ ابْنِهِ أَبِي بَكْر ثَلَاثَة عَلَى نَسَقٍ، وَهَلْ لَكُمْ فِي عِلْمِ اَلتَّارِيخِ كَابْن حَيَّانِ صَاحِبِ "اَلْمَتِينِ" و "اَلْمُقْتَبَسِ"؟ وَهَلْ عِنْدكُمْ فِي رُؤَسَاءِ عِلْمِ اَلْأَدَبِ مِثْلَ أَبِي عُمَر بْن عَبْدِ رَبِّه صَاحِب "اَلْعَقْدِ"؟ وَهَلْ لَكُمْ فِي اَلِاعْتِنَاءِ بِتَخْلِيدِ مَآثِرِ فُضَلَاءِ إِقْلِيمِه وَالِاجْتِهَادِ فِي حَشْدِ مَحَاسِنِهِم مِثْلَ اِبْن بَسَّام صَاحِبِ اَلذَّخِيرَةِ ... إِلَخ"(١).

بهذا الأسلوب يستكمل الشقندي دفاعه إلى أن يصل إلى نهايته؛ لذا فالبنية المركزية لموضوعه من بدايته إلى نهايته **بنية تساؤلية مجازية**، والتساؤلات في متن النص كما يظهر في الفقرة السابقة وما يأتي على الأسلوب نفسه حتى نهاية النص ذات وظيفة مزدوجة؛ فبينما تنفي عن الخصم تثبت للمدافع، ومن ثم يمكننا القول إن تساؤلات المتن جميعها إنكارية تقريرية، فهي تقرر واقعًا متميزًا تحمل التساؤلات في تقريرها له فخرًا وإثباتَ فضل ومباهاةً وتحديا، وتنكر في الوقت ذاته إمكانية تحققه عند المنازع في المفاضلة.

يتضح ذلك أيضًا في تناوله لمجال الأدب شعره ونثره، حيث توقف عند العجيب والمتفرد والمبتكر من إبداع الشعراء والكتاب، فنجده يتوقف عند ابن الزقاق شاعر الابتكار والتفرد في الأندلس الذي "عرف كيف يستخدم طريقة تعبير جديدة تتمثل في إخضاع الصور المستهلكة التي أصبحت على نحو ما

(١) المقري، نفح الطيب، الجزء الثالث، ص ١٨٦-١٨٧.

مفردات لغوية، لنوع من الدرامية القصيرة" [١] كما يذكر غرسيه غومث، ويورد له الشقندي هذه القصيدة:

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى فحثها والصباحُ قد وضحا
والروض يبدي لنـــا شـــقائقه وآسه العنبري قد نفحا
قلنا: وأين الأقاحُ، قـــال لنـــا: أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقي المدام يجحـــد مـــا قال، فلما تبسم افتضحا[٢]

دليلا على تفرد ابن الزقاق بطريقة جديدة مبتكرة غير مستهلكة في رسم صوره الشعرية حيث يقول "وَهَلْ مِنْكُمْ شَاعِرٌ رَأَى اَلنَّاسَ قَدْ ضَجُّوا مِنْ سَمَاعِ تَشْبِيهِ اَلثَّغْرِ بَالْأَقَاحِ*، وَتَشْبِيه اَلزَّهْرِ بِالنُّجُومِ، وَتَشْبِيه اَلْخُدُودِ بِالشَّقَائِقِ*، فَتَلَطَّفَ لِذَلِكَ فِي أَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَنْزَعٍ يَصِيرُ خَلَقُهُ فِي اَلْأَسْمَاعِ جَدِيدًا، وَكَلِيلُه* فِي اَلْأَفْكَارِ حَدِيدًا، فَأَغْرَبَ أَحْسَنَ إِغْرَاب، وَأَعْرَبَ عَنْ فَهْمِهِ بِحُسْنِ تَخَيُّلِهِ أَنْبَلَ إِعْرَاب"[٣].

وهو ما التفت إليه غرسيه غومث عند تناوله لهذه الأبيات قائلا "فالشاعر يصدر عن الفكرة الشائعة، من تشبيه الثغر بالأقحوان ... انطلق من هذا التشبيه، ثم أعطاه طابعًا مسرحيًّا: الندامى يشربون ضحى في روض بين الشقائق والريحان، ولم يكن الأقاح هناك، فسألوا عنه، فأجابهم الروض: لقد

(١) حامد يوسف أبو أحمد، دراسات نقدية في الأدبين العربي والإسباني، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م، ص ١٤٤.
(٢) إميليو غرسيه غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، تعريب الطاهر أحمد مكي دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، ١٩٩٦، ص ١٣٢.
* الأقاح جمع أقحوان وهو نوع من النبات له زهر أبيض.
* الشقائق المقصود بها شقائق النعمان وهو نبات مميز بحمرته.
* الكليل هو الذي لا يقطع عكس الحديد أي الحادّ القاطع.
(٣) المقري التلمساني، نفح الطيب، الجزء الثالث ص ١٩٩.

أودعته ثغر الساقي. ولكن الساقي أنكر فلما ابتسم بدت أسنانه، لقد كانت الأقحوان الذي افتقده الندامى" (١).

ويستمر الشقندي في أدلته مع ابن الزقاق مستمرًا في الاعتماد على التقنية التساؤلية المجازية، إلا أنها تصاغ في هذا المسلك لتوليد معاني الفخر والاعتزاز والمباهاة حيث يردف هذه القصيدة لابن الزقاق بقوله متسائلًا:

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيمُ الرياح
زرتها والغمامُ يجلدُ منها زهراتٍ تروق لونَ الراح
قلت: ما ذنبها؟ فقال مجيبًا: سرقت حمرة الخدود الملاح(٢)

"فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين؟ وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين؟"(٣) ولعل في تعليق غومث على ابتكارية التشبيه وتجديده ما يوضح إعجاب الشقندي النقدي بهذه القصيدة؛ حيث يرى غومث أن "تشبيه الخد بشقائق النعمان تشبيه مستهلك، ولكن يمكن أن يعكسه فتصبح شقائق النعمان مثل الخد، وما إن يعكسه حتى يضفي عليه طابعا مسرحيا مأسويا: شقائق النعمان سرقت لون الخدود، وتأديبا لها على ذلك أخذ الغمام يجلد زهورها" (٤).

يختتم الشقندي نصه بعد حشد الأمثلة والشواهد المتنوعة والتنقل بين العديد من الشعراء والكتاب والعلماء... إلخ بالحديث عن المدن وجمالها وما تحظى به من مظاهر عمران وما تشتهر به على غيرها من المدن الأخرى من صفات ومحاسن حباها الله إياها وفي هذا الجزء يتحدث عن أكثر من مدينة أندلسية بقوله "وَإِنْ تَعَرَّضَتُ إِلَى ذِكْرِ اَلْبِلَادِ، وَتَفْسِيرِ مَحَاسِنِهَا، وَمَا خَصَّهَا اَللَّهُ تَعَالَى بِهِ

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٦.
(٢) إميليو غرسية غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، ص ١٣٤.
(٣) المقري التلمساني، نفح الطيب، ج ٣، ص ٢٠٠.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٦.

مِمَّا حَرَمها غَيْرَهَا، فَاسْمَعْ مَا يُمِيتُ اَلْحَسُودَ كَمَدًا: أَمَّا إِشْبِيلِيَّة فَمِنْ مَحَاسِنِهَا اِعْتِدَالُ اَلْهَوَاءِ، وَحُسْنُ اَلْمَبَانِي، وَتَزْيِينُ اَلْخَارِجِ وَالدَّاخِلِ، وَتَمَكَّنُ اَلتَّمُصْرِ، حَتَّى إِنَّ اَلْعَامَّةَ تَقُولُ: لَوْ طُلِبَ لَبَنُ اَلطَّيْرِ فِي إِشْبِيلِيَّة وُجِدَ، وَنَهْرُهَا اَلْأَعْظَمُ اَلَّذِي يُصَعِّدُ اَلْمَدُّ فِيهِ اِثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِيلًا ثُمَّ يَحْسُر، وَفِيهِ يَقُولُ اِبْنُ سَفَر:

شَقَّ اَلنَّسِيمُ عَلَيْهِ جَيْبُ قَمِيصِـــهِ فَانْسَابَ مِنْ شَطَّيْهِ يَطْلُـــبُ ثَـــارَهُ
فَتَضَاحَكَت وُرْقُ اَلْحَمامِ بِدَوحِهَا هُزْءًا فَضَمَّ مِـــنْ اَلْحَيَـــاءِ إِزَارَهُ

وَزِيَادَتُهُ عَلَى اَلْأَنْهَارِ كَونُ ضَفَّتَيْهِ مُطَرَّزَتَيْنِ بَالْمَنَازِهِ وَالْبَسَاتِين وَالْكُرُومِ وَالْأَنْشَام* مُتَّصل ذَلِكَ اِتِّصَالًا لا يُوجَدُ عَلَى غَيْرِهِ" (١).

والشقندي في حديثه عن إشبيلية إنما يضرب المثل الدال على جميع مدن الأندلس كذلك على حد قوله "وَمَا مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرَتُ فِي هَذِهِ اَلْبَلْدَةِ اَلشَّرِيفَةِ إِلَّا وَقَصْدِي بِهِ اَلْعِبَارَةُ عَنْ فَضَائِلِ جَمِيعِ اَلْأَنْدَلُسِ، فَمَا تَخْلُو بِلَادُهَا مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِن جُعِلَتْ إِشْبِيلِيَّة، بَلِ اَللَّهُ جَعَلَهَا أُمَّ قُرَاهَا، وَمَرْكَزَ فَخْرِهَا وَعُلَاهَا، إِذْ هِيَ أَكْبَرُ مُدُنِهَا، وَأَعْظَمُ أَمْصَارِهَا"(٢)، وأخذ يعرج بعد ذلك على قرطبة وجيَّان وغرناطة ومالقة والمرية ومرسية وبلنسية... إلخ.

لعل في تأخير ذكر الشقندي للمدن ومزاياها (٣) ما يدعو للتفكر في منهجية بناء النص، حيث لم يلجأ الشقندي في إثباته لفضل الأندلس بما حباها الله من نعم وعوامل تميز وتفضيل، وإنما لجأ إلى إبراز الدور البشري في استحقاق هذا الفضل فقد تميزت الأندلس بالحضارة والثقافة والعلم فضلًا عما حباها الله

* الأَنْشَام جمع نَشَمَة وهي شجر من الفصيلة الزيزفونية يتخذ منه القسي (المعجم الوسيط)
(١) المقري، نفح الطيب، الجزء الثالث، ص ٢١٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٤.
(٣) تجدر الإشارة هنا إلى أن في حديث الشقندي هذا عن المدن وما تتماز به وتحويه من محاسن بيئية وعمرانية ما يفتح مجالا للدرس البيئي الحضاري في علاقته بالأدب الذي يمكنه أن يسفر عن نتائج في غاية الأهمية لا سيما في ظل تطور الدراسات النقدية البيئية ومنجزاتecocriticism theory.

من هبات طبيعية، ويختم بقوله "هَذَا – زَانَ اَللَّهُ تَعَالَى فَضْلَكَ بِالْإِنْصَافِ، وَشَرَّفَ كَرَمَكَ بِالاعْتِرَافِ – مَا حَضَرَنِي اَلْآنَ فِي فَضْلِ جَزِيرَةِ اَلْأَنْدَلُس، وَلَمْ أَذْكُرْ مِنْ بِلَادِهَا إِلَّا مَا كُلُّ بَلَدٍ مِنْهَا مَمْلَكَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ يَلِيهَا مُلُوك بَنِي عَبْد اَلْمُؤْمِنِ عَلَى اِنْفِرَادٍ، وَغَيْرُهَا فِي حُكْمِ اَلتَّبَعِ" (١).

ثالثًا: النتائج

توقفت هذه الورقة البحثية عند مصطلح "رسالة" وما لحقه من تعميم حيث أصبح يطلق على جل الكتابات النثرية التي تنتمي لهذه الفترة الزمنية التي يمكن تتبعها بداية من القرن الرابع الهجري، ومن ثم اتجهت إلى تحديد ماهية الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية باعتبار ما تحققه هذه الرسائل من وظيفة تواصلية وما تشتمل عليه من سمات فنية، عبر هذا التحديد يُفتح مجال البحث لكل كتابة لا تنتمي إلى هذين النوعين لكنها تأتي تحت مصطلح رسالة وهو الأمر المتحقق في رسالة الشقندي في فضل الأندلس.

ثم توقفت عند "فن المقال" باعتباره النوع الأقرب الذي يمكن أن تندرج تحته هذه الرسالة، مستعينة ببعض الإشارات النقدية التي أقرت بقدم فن المقال عند العرب وقدم ظهوره تحت مصطلح الرسالة، ومتخذة من ماهية فن المقال وخصائصه مسوغًا لإعادة النظر في نص الشقندي؛ حيث يُعرف المقال على النحو التالي: قطعة نثرية ذات طول معتدل وتدور حول موضوع معين، فالمقال ينبني على فكرة ورأي يريد الكاتب إقناع المتلقي به فيتسلح في سبيل تحقيق ذلك بمعارفه وقراءاته لتصبح بمثابة الحجج والأدلة على ما يتغياه. "من هنا اعتمد المقال على الحكاية والمثل والإشارة إلى جانب المادة التحصيلية وكل ذلك يتشكل– حين يأخذ صورته النهائية– بحالة الكاتب النفسية ومعنى هذا

(١) المقري، نفح الطيب، الجزء الثالث، ص ٢٢١-٢٢٢.

أن الكاتب يحدد مشروع مقاله من قبل أن يكتبه بحيث تتوجه كل مادته على اختلاف أنواعها إلى جلاء فكرة واحدة في جميع جوانبها، وفي الوقت الذي يحرص فيه الكاتب على تماسك مقاله وقوته، نجده حريصا على إمتاع قارئه"(١).

على هذا النحو فإن أبرز الخصائص التي يمكن أن نستخلصها لـــ"فن المقال" تتمثل في:

-النثرية إذ يغلب عليه التفكير لا الخيال والعاطفة .

-بنية المقال بنية متماسكة حول موضوع واحد مترابط الأفكار.

-الإقناع حيث يسوق الكاتب الأدلة والحجج والبراهين بغية إقناع المتلقي بالفكرة التي يدور حولها المقال.

-التقريرية والمباشرة والوضوح.

-العرض الجذاب الذي يجذب القارئ ويمتعه، وفيه يستطيع الكاتب أن يوظف مخزونه من القصص والأشعار والأمثال لإمتاع المتلقي من ناحية، وإقناعه من ناحية أخرى.

-الذاتية؛ فالمقال يحمل رأي الكاتب وفكرته وشخصيته.

-التكثيف الذي يجعل المقال لا يتجاوز بضع صفحات على ما يحمله من أفكار.

ومن ماهية المقال هذه وخصائصه انتقلت إلى الجانب التطبيقي حيث تحليل رسالة الشقندي وتبين خصائص المقالية بها فتمثلت على النحو التالي:

(١) عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة التاسعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣ م، ص ١٦٣..

أولا: لم يُكتب نص الشقندي لمناسبة من المناسبات الاجتماعية وإنما بُني حول موضوع واحد محدد "إثبات فضل الأندلس والدفاع عنها" بنية متماسكة متسلسلة الأفكار.

ثانيًا: الذاتية هذا النص يبنى على رأي الكاتب ودفاعه عن مكان انتمائه ومكانته، فالنص يحمل أفكاره ورؤيته وشخصيته، هذا بالإضافة إلى أن نص الشقندي حمل كذلك رؤاه النقدية واختياراته الأدبية.

ثالثًا: الابتعاد عن اللغة العاطفية والخيالية، واللجوء إلى إعمال الفكر واللغة التقريرية المباشرة في إيصال الفكرة في وضوح وقوة، حيث اتخذ الشقندي من الصياغة التقريرية وسيلة تأكيد ودحض اعتراض مخالفه، فالصياغة تقر واقعًا لا مجال للاعتراض عليه أو المجادلة فيه.

رابعًا: البنية الإقناعية التي تسلحت بالبنية التساؤلية لدحض أفكار المنازع وبيان تهافتها من ناحية، ولسوق الأدلة على التميز والتفوق في شتى الميادين والمجالات من ناحية أخرى بضرب الأمثلة وفتح مجال القياس على ما يسوقه من أمثلة.

خامسًا: أسلوب العرض حيث اتسم نص الشقندي بعرض يجذب المتلقي من خلال تنوعه وتوظيفه لحصيلته الثقافية؛ حيث احتشد فيه بالأمثلة والشواهد والأدلة على مقدمته وما يطرحه من آراء حول الأندلس، فيزخر بذكر المحاسن والمآثر وفيه ينوع الشقندي حديثه فيباهي بشتى المجالات والشخصيات، فضمت عناصر المفاضلة والمباهاة والفخر عنده الملوك، والشعراء، والكتاب، وعلماء الفقه، وعلماء اللغة والنحو، والفلاسفة، والمهندسين، والأطباء، والمؤرخين، وعلماء الفلك، والفرسان، والشعراء، والكتاب.

سادسًا: التكثيف حيث عمد نص الشقندي إلى التكثيف والتوالي والسرعة في طرح الأسئلة التي تقوم بعدة وظائف، فالتساؤلات الاستنكارية التعجبية تأتي

مكثفة متتالية متسارعة- تنبع سرعتها من قصرها وتكثيفها المعاني- لا تترك مجالًا للإجابة أو التفكير وإنما تحقق هدفه وغايته.

على هذا النحو كان الوقوف على خصائص النوع الأدبي وماهيته ووظيفته إجراءً بحثيًا كاشفًا عن خصائص نص الشقندي ومدى اقترابها من خصائص فن المقال ووظيفته؛ لذا تتمثل النتيجة الأبرز لهذا البحث في إمكانية تصنيف "رسالة الشقندي" تحت فن المقال بوجه عام وإدراجها تحت "المقال النقدي" بصفة خاصة باعتبارها مقالة تتناول النتاج الأدبي والفكري والثقافي بالنقد والتحليل، حيث تعتمد "المقالة النقدية على قدرة الكاتب على تذوق الأثر الأدبي، ثم تعليل الأحكام وتفسيرها وتقويم الأثر بوجه عام"[1]، والاعتماد على الإقناع بالفكرة الرئيسة التي تولد منها المقال عبر طرائق تقديم الأدلة الداعمة لها وكيفيات تسلسلها ومنطقية عرضها، وجميعها خصائص شملها نص الشقندي الذي تغيا به إثبات الفضل للأندلس والدفاع عنها.

(١) محمد يوسف نجم، فن المقالة، ص ١٠٤-١٠٥.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ م.

ثانيًا: المراجع

- ألفت الروبي، تشكل النوع القصصي- قراءة في رسالة التوابع والزوابع، فصول، مج ١٣، ع ٣، الهيئة العامة لكتاب، مصر، ١٩٩٣ م.

- إميليو غرسيه غومث، مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات، تعريب الطاهر أحمد مكي دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة، ١٩٩٦، ص ١٣٢.

- بوعلي كحال، من الشكلانية إلى البنيوية: إقصاء التاريخ والواقع المادي، مجلة مقامات للدراسات اللسانية والنقدية والأدبية، المركز الجامعي آفلو – معهد الآداب واللغات، ع٣، ٢٠١٨م.

- حامد يوسف أبو أحمد، دراسات نقدية في الأدبين العربي والإسباني، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧ م.

- سحر محمد فتحي عبد العليم، أعمال أدبية أندلسية مهدت الطريق إلى القص العربي الحديث، مجلة Arabic and world literature: comparative and Multidisciplinary perspectives، ع ١،٢٠٢٠ م.

- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، الطبعة العاشرة، ١٩٦٠م.

- عبد الجواد أحمد محمد أحمد، فن المقال بين القديم والحديث، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، ع ١٣،١٩٩٣ م.

- عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه دراسة ونقد، الطبعة التاسعة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣ م.

- عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث وتطوره، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٧ م.

- محمد عبد الله العوين، المقالة في الأدب العربي القديم، التوباد، مج ٢، ع ١.٢، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، ١٩٨٩ م.

- محمد مندور، الأدب وفنونه، الطبعة الخامسة، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٦ م،

- محمد يوسف نجم، فن المقالة، الجامعة الأميركية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

- محمود أمين العالم، مدخل إلى قراءة حي بن يقظان لابن طفيل، أدب ونقد، ع ١٠٦، مصر ١٩٩٤ م.

- ممدوح أبو الوي، المدرسة الشكلية الروسية وأثرها في الاتجاهات النقدية الحديثة، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، مج٤٦-ع٥٦٠، ٢٠١٧م.

- ونوفل نيوف، الشكلانية الروسية، مجلة الآداب العالمية اتحاد الكتاب العرب، س٣٥-ع١٤٣، ٢٠١٠م.

- Eagleton, Terry .*Literary theory: An introduction* .John Wiley & Sons, 2011.

Sources and References

First: Sources:

- Al-Moqri At-Talmasani, *Nafh At-Taeeb an Ghusn Al-Andalus Ar-Rateeb*, Dar Sader, Beirut, 1968.

Second: References

- Ulfat Ar-Rubi, *Tashakul An-Nawaa Al-Qassasi Qiraah fi Risalat At-Tawabea wa Az-Zawabea*, vol. 13, issue 3, General Authority of Books, Egypt, 1993AD.
- Emilio Garcé Gómez, *Maa Shuaraa Al-Andalus wa Al-Mutanabi Seyar wa Dirasat*, Dar Al- Maarif, Egypt, 6th edition, 1996, p. 132.
- Boa Ali Kahal, *Min Ash-Shaklaniyyah ela Al-Bunayniyyah: Iqsaa At-Tarikh wa Al-Waqea Al-Madi*, Muqamat Journal of Linguistic, Critical and Literary Studies, Aflo University Center – Institute of Arts and Languages, P3, 2018AD.
- Hamed Youssef Abu Ahmed, *Dirasat Naqdiyyah fi Al-Adabayn Al-Arabi wa Al-Asbani*, Dar al-Fikr Al-Arabi, Cairo, 1987AD.
- Sahar Mohamed Fathi Abdel-Alim, *Aamal Adabiyyah Andalusiyyah Mahdat At-Tariq ela Al-Qass Al-Arabi Al-Hadith* , Arabic and world literature: comparative and Multidisciplinary perspectives,isssue 1 ,2020AD.
- Shawki Daif, *Al-Fann wa Mazahebuh fi An-Nathr Al-Arabi*, Dar Al-Maaref, 10th Edition, 1960AD.
- Abd Al- Jawad Ahmed Mohamed , *Fann Al-Maqal Bayn Al-Qadeem wa Al-Hadith* , Journal of the Faculty of Arabic Language in Assiut, issue 13, 1993AD.
- Abd Allah Al-Ghuzami, *Al-Khateeah wa At-Takfir min Al-Binyawiyyah ela At-Tashrihiyyah*, 4th edition, Egyptian General Authority for Book, Cairo, 1998AD.

- Izz Ad-Din Ismail, *Al-Adab wa Funounuh*, 9th Edition, Dar al-Fikr Al-Arabi, Cairo, 2013AD.

- Omar Ad-Desouki, *Nashaat An-Nathr Al-Hadith*, Dar Al Fikr Al Arabi, Cairo, 2007AD.

- Mohammed Abd Allah Al-Awain, *Al-Maqalah fi Al-Adab Al-Arabi Al-Qadim*, vol.2, issue 1.2, Saudi Arabian Society for Culture and Arts, 1989AD.

- Mohamed Mandour, *Al-Adab wa Fonounuh*, 5th Edition, Nahdet Misr, Cairo, 2006AD,

- Mohamed Youssef Negm, *Fann Al-Maqalah*, American University, Beirut, 1st Edition, 1997.

- Mahmoud Amin Al-Alam, *Madkhal ila Qiraat Hayy Bin Yaqzan li Ibn Tufeil*, Literature and Criticism, issue 106, Egypt, 1994AD.

- Mamdouh Abu Al-Wai, *Al-Madarsah Ash-Shakliyyah Ar-Russiyyah wa Atharuha fi Al-Itijahat An-Naqdiyyah Al-Hadithah*, the Arab Writers Union, vol.4, issue 560, 2017AD.

- Nofal Neuf, *Ash-Shaklaniyyah Ar-Russiyyah*, Al-Adaab Al-Alamiyyah Journal, Union of Arab Writers, Quarterly 35, issue 143, 2010AD.

- Eagleton, Terry. *Literary theory: An introduction*. John Wiley & Sons, 2011.